الحلقة 7

إعداد: ربيع سكر

مؤلفه القاضي أبوالمحاسن بهاء الدين بن شداد

سيرة صلاح الدين الأيوبي.. النوادر السلطانية و المحاسن اليوسفية

الحضارة العربية و الإسلامية هي حضارة كتب ومكتبات كان لها أكبر الأثر في تقدم وازدهار الحضارة الانسانية في العصر الحديث ، ومن المعلوم ان الإسلام يحض على العلم ويعتبره فريضة على كل مسلم، وقد ابتدأ القرآن الكريم نزوله بالآيات "اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم" وكانت الآية القرآنية "ن والقلم وما يسطرون" وقوله تعالى: "إنما يخشى الله من عباده العلماء" وقوله أيضاً: "يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات". وقد أحب المسلمون الكتب حباً ملك عليهم مشاعرهم وذكر ول ديورانت في كتابه (قصة الحضارة) " لم يبلغ حب الكتب في بلد آخر من العالم إلا في بلاد الصين في عهد منج هوانج ما بلغه في بلاد الإسلام في القرون الثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر».

ومن المتفق عليه انه بدأت الحركة العلمية الاسلامية في القرن الأول الهجري، بجمع القرآن الكريم ونسخه، وجمع الحديث الشريف وتدوينه، والترجمة إلى العربية عن اليونانية والفارسية والهندية وغيرها من اللغات، والدراسات الفقهية، والأشعار والأنساب، وتسجيل السيرة النبوية والمغازي، وظهرت المكتبات الخاصة، وتطورت المكتبات ونضجت وازدهرت في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) وبلغت ذروتها في القرن الرابع. وشهد القرن الثاني الهجري تطوير أو اختراع الورق الذي نقل الحركة العلمية نقلة مهمة وبعيدة فازدهرت صناعة النشر (الوراقة). وبنيت في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد مكتبة بيت الحكمة التي كانت مركزاً مهماً لترجمة الكتب التي جمعها المسلمون من خزائن الكتب في مختلف أرجاء العالم وكان المأمون يرسل العلماء المتخصصين للبحث عن الكتب وجمعها من مصادرها ، وعرفت أيضاً مكتبات المساجد والمكتبات الخاصة والمكتبات العلمية والبحثية ومكتبات الخلافة ومكتبات المشافي.

وكان المسجد مركزاً للعلم والدراسة إضافة إلى العبادة وذلك حتى زمن قريب ومازال بعضها كذلك حتى الآن في أنحاء كثيرة من العالم الإسلامي وأماكن تجمع المسلمين، واشتهرت مساجد كثيرة باعتبارها مراكز للعلم والفقه والبحث كالمسجد الحرام في مكة المكرمة والمسجد النبوي في المدينة المنورة والمسجد الأقصى في القدس، والمسجد الأموي في دمشق، والجامع الأزهر في القاهرة، ومسجد الزيتونة في تونس، ومسجد قرطبة، وجامع المنصور في بغداد.

لذلك فانه على الرغم من تفوق الحضارة الغربية في الوقت الحالي، إلا أن البدايات كانت عربية في العديد من المجالات، حيث أثرى العلماء العرب والمسلمون العلم في تخصصات مختلفة، بالإضافة إلى الأدب العربي الذي ألهم الكثير من الكتاب الغربيين، ونواحي أخرى متعددة .

وللاسف الشديد اذا سألت أحدهم : من هم العلماء الأكثر تأثيراً في التاريخ ؟ .. تكون الإجابة : اينشتاين ، داروين ، غاليليو ، نيوتن .. وغيرهم .. وهي إجابة صحيحة بلاشك ، لما قدمه هؤلاء من علوم واختراعات وأفكار ، كانت هي السبب الرئيسي في تقدم الانسانية ..لكن ، هل فعلا كانوا هم الروّاد الأوائل فى تقدم البشرية ، ولم يسبقهم علماء آخرون مهّدوا لهم العلوم والمعارف التى جعلتهم يبتكرون مايبتكرون ؟ بالطبع سبقهم علماء اخرون أبدعوا وألفوا ووضعوا بدايات قواعد ونظريات وأسس العلوم الانسانية والعلمية.

وتقدم " الوسط " خلال شهر رمضان سلسلة من الحلقات بعنوان «كاتب وكتاب» وهي نماذج وأمثلة لمؤلفات عربية تركت علامة في الحضارة الانسانية في الشرق والغرب بطريقة او بأخرى ، فمن المؤكد ان التقدم الهائل الذي وصلت إليه البشرية اليوم ، لم يظهر بين يوم وليلة.. إنما جاء من تراكم هائل للخبرات والمعلومات والرؤى والنظريات والأبحاث ،التى توارثتها الأجيال جيلاً بعد جيل .. وقرناً بعد قرن .. و ارتكزت عليها الحضارة الإنسانية ، وقامت بالبناء عليها والتطوير فيها ،حتى وصلنا إلى ما وصلنا إليه الآن..

وجولتنا اليومية بين أوراق الكتب التراثية والحديثة وما نعرضه منها على حلقات خلال شهر رمضان المبارك ، هي دعوة للاجيال الحالية للبحث والتنقيب في تراث الأجداد من العلماء والأدباء والمفكرين العرب والمسلمين الذين علموا العالم بمؤلفاتهم وحبهم للعلم وأفنوا حياتهم في خدمة الانسانية جمعاء حتى بلغت الحضارة الإسلامية درجة عالية من الرقي بجهود العلماء المسلمين والخلفاء الذين شجعوا هؤلاء العلماء، فازدهرت الحياة العلمية في شتى نواحي المعرفة، وكان لمؤلفات العلماء المسلمين دور كبير في نهضة البشرية وتقدمها التكنولوجي الذي يعيشه العالم الآن ، وفي تلك الحلقات نلقي الضوء حول بعض مؤلفات العلماء العرب والمسلمين العظماء الذين كانوا يعيشون في العصور الوسطى ، فى مساحة جغرافية هائلة ، امتدت من الاندلس غرباً إلى تخوم الصين وروسيا شرقا ...فهل يُمكن ان نعيد انتاجهم بيننا من جديد فى هذا العصر الذي نعيشه الآن لنصنع نهضتنا العربية والإسلامية من جديد ؟

غلاف طبعة حديثة من الكتاب

الكتاب سيرة ذاتية وتاريخية عن حياة القائد «صلاح الدين الأيوبي» وفتوحاته وأخلاقه التي جعلت منه أيقونة يُحتذى بها

أبو المحاسن بهاء الدين بن شداد كاتب عربي كان قاضيًا في عصر «صلاح الدين الأيوبي» ومؤرِّخًا لفترته

سيرة صلاح الدين الأيوبي، المسمى « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» من تأليف أبوالمحاسن بهاء الدين بن شداد هو سيرة ذاتية وتاريخية عن حياة القائد «صلاح الدين الأيوبي»؛ يأتي فيها المؤرخ«ابن شداد» تفاصيل نشأة هذا القائد العظيم، وفتوحاته وأخلاقه التي جعلت منه أيقونةيُحْتَذَى بها.

نبذة عن الكتاب

الكتاب وضعه المؤلف القاضي ابن شداد سجلاً لسيرة صلاح الدين الأيوبي مبتغياً بذلك رد فعض الجميل إلى هذا الإنسان النبيل وكشفاً للحق وإيضاحاً للجوانب الغامضة التي يستطيع إيضاحها من سيرته. وذلك أن موفد حكومة الموصل السابق لاستعداد مركز الخلافة العباسية على صلاح الدين ومرتب الصلح بين صلاح الدين وحكومة الموصل مع تكليف الأول بأن يحلف أغلظ الإيمان على الصدق وهو ابن شداد، هذا الدبلوماسي العالم الذي لم يكن في صفوف الصلاحيين أصبح منذ مطالع جمادى الأولى من عام 584هـ من أقرب المقربين مكاناً ومكانة إلى صلاح الدين، وشهد معه أكثر الوقائع التي شهدها منذئذ، كما اطلع على أكثر ما يجري في بلاط السلطان الأيوبي.

فأصبح جديراً بأن يؤرخ له فوضع هذا وجعله من قسمين: أولهما: منذ ولادة صلاح الدين حتى التحاق ابن شداد بالبلاط الصلاحي الذي لم يكن أكثر من مخيم حرب. وثانيهما: يبدأ بهذا الالتحاق وينتهي بوفاة السلطان عام 589 هـ. وابن شداد في القسم الأول ناقل عن سواه ولكنه يحاول أن يأخذ بأصح الروايات حسب الوسائل المتاحة له.

وأما أغلب القسم الثاني فابن شداد فيه شاهدة عيان يسجل ما يشاهد بل وما يعاني في كثير من الأحيان فيقول: "ومن هذا التاريخ ما أسطر إلا ما شاهدته أو أخبرني به من أثق به خبراً يقارب العيان"، وحين تقع حادثة في غيابه ينص على ذلك صراحة مما يؤكد أمانته العلمية ويدل على أنه يعي قيمة حضور الشاهد.

وعا المؤلف «ابن شداد» فترة حكم «صلاح الدين الأيوبي»، وأرَّخ لهذه الفترة التاريخية الهامة؛ فبدأ المؤرخ بلاد أخبار عن مولده ونشأته «تكريت»، ثم ذكرالعديد من الأخبار التي تدل على سماحة أخلاقه وكرم طباعه؛ فكان يُعرف عنه الشجاعة والثبات ميدان الحرب، وشغفه بالجهاد، وقد أنفق الكثير من ماله إعداد الجيوش. ولعل من أشهر المواقف التي أظهرت مروءة «صلاح الدين الأيوبي» ماجرى أثناء حروبه ضد الصليبيين وتسامحه معهم بعد هزيمتهم وفتح «القدس». يجمع إليها المؤلِّف بين طيات هذا الكتاب العديد من الخبايا والنوادر التي حدثت بين الغزوات؛ والتي تؤرخ للفتوحات الأيوبية. و كتاب " النوادر السلطانية"، هو الذي خلد ابن شداد، وجعله من كبار المؤرخين، كما حاول هو أن يخلد صلاح الدين فيه، ولا يخفى الأثر الذي يتركه موضوع الكتاب على مؤلفه شهرة أو خمولاً، ولا يعني هذا أن ابن شداد كان يسعى إلى ذلك أو يدركه، وإنما الذي لا شك فيه أنه ألفه مخلصاً لا يريد به إلا وجه الحق، ورد بعض جميل صنيع صلاح الدين لأمته، وجعله قدوة لمن سيأتي بعده، وتخليده رمزاً تتجسد فيه على مدى الأيام أسمى صورة للفروسية والنبل والعروبة والإخلاص، تزرع الأمل منيراً في أكثر ليالي الأمة ظلاماً، ولنؤمن إيماناً راسخاً أن الأمة التي حررت القدس بعد احتلال وحشي دام واحداً وتسعين عاماً قادرة على أن تحررها في عصرنا الحديث هذا مرة أخرى.

نبذة عن الكاتب

أبو المحاسن بهاء الدين بن شداد: كاتب عربي، كان قاضيًا عا «صلاح الدين الأيوبي»، ومؤرِّخًا لفترته.

وُلد أبو المحاسن بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم بن شداد الأسدي الموصلي الموصل عام 1145م، وقد كان يتيمَ الأب عُمْر صغير، فربَّاه أخوالُه بنو شداد،وأخذ لقبَه منهم لهذا السبب. وتعلَّم القرآن والعلوم الدينية منذ طفولته، ثم انتقل إلىبغداد ليستزيد من العلوم الداعية الإسلامية كالحديث والتفسير والفقه، ومن الأدبوالفلسفة وعلوم الكلام واللغة، فالتحق بالمدرسة النظامية، ثم أصبح مدرِّسًا فيها. وعاد بعد ذلك إلى الموصل، ودرس المدرسة التي أسَّسَها «القا كمال الدين محمد بن الشهرزوري»، وأع ذا مؤلَّفاته حتى عرفه الناس، وأصبح ذا مكانة علمية كبيرة.

مَرَّ أبو المَحاسن بن شداد رحلة الحج بحلب ودمشق، وكتب عن سفرته، فسمع«صلاح الدين الأيوبي» بذلك فاستدعاه وطالَبَه بالبقاء الشام ليجعله قاضيًا للعسكر، وأولَ قاض لمدينة القدس بعد انتصار «صلاَح الدين»، وناظرًا للأوقاف فيها؛ فأصبح واحدًا من أهم رجاله، ومن المقرَّبين إليه. وكلَّفه الملك «الظاهر» بعد ذلك بقضاءحلب وأوقافها، وجعل له مرتبةً تضاهي مرتبةَ الوزراء. ويُنسَب إليه بناءُ العديد من المدارس وانتشارُ العلم حلب، حتى أصبحت مقصدًا للطلاب وللعلماء. كما تقلَّدالوصاية العلمية على الملك «العزيز» منذ كان طفلاً وحتى بلغ سنَّ الرُّشْد.

وكان ابن شداد مخلصاً لله وللسلطان صلاح الدين، ناصحاً لهما، عالماً عاملاً، لم ينافس أحداً على حطام الدنيا، زاهداً في المناصب، يعمل في الصمت أعمالاً جليلة تثبت جدارته، فينال ما يستحق بهدوء وتواضع، مما جعل صلاح الدين يزداد في تقريبه إليه، حتى كان هو والقاضي الفاضل آخر من يبقى معه كل ليلة من ليالي مرضه الأخير الذي توفي به ليلة الأربعاء 27 من صفر عام 589هـ في دمشق .

ومما يدل على إعجابه الشديد بصلاح الدين قوله عنه: "انظر إلى الهمّة التي لم يشغلها عن الغزاة أخذ حلب ولا الظفر بها، بل كان غرضه الاستعانة بالبلاد على الجهاد، فالله يحسن جزاءه في الآخرة كما وفقه للأعمال المرضية في الدنيا.

وأخلص ابن شداد لصلاح الدين في حياته، كما أخلص له بعد وفاته، وذلك بوقوفه من أولاده موقف الناصح لهم المصلح لما بينهم، لذا نجده كثير التنقل بين حلب والقاهرة لهذا الأمر

ولقد اعتمد عليه الملك الأفضل ابن صلاح الدين واحترمه كثيراً، وكان يشاوره في جليل الأمور ودقيقها، ولكنه عندما ورد إليه كتاب أخيه الظاهر ملك حلب يطلب فيه أن يتحفه بابن شداد أجابه إلى ذلك إيثاراً وحباً، وسيّره إليه.

طبعة ليدن عام 1168 من كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة السلطان صلاح الدين الأيوبي

طبعة باريس عام 1884 مع ترجمة فرنسية لكتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لابن شداد (سيرة صلاح الدين الأيوبي)

مخطوط نادر لكتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية – مخطوط أيوبي – مخطوطات المسجد الأقصى

وتعد أشهر أعمال بهاء الدين بن شداد تاريخه لعصر صلاح الدين الأيوبي، والتي نشرها باسم "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية"، وهو العمل الذي نجا ولم يضيع عبر الزمن. كما كتب ابن شداد العديد من الأعمال حول تطبيق الشريعة الإسلامية مثل "ملجأ القضاة من غموض الأحكام" و"البراهين على الأحكام"وكتاب «دلائل الأحكام علم الحديث وكتب اخرى «فضائل الجهاد».و«الموجز الباهر»، و«العصا» و«أسماء الرجال الذين المهذب للشيرازي» والكثير من المعلومات المعروفة عن ابن شداد مستمدة من كتاب ابن خلكان وفيات الأعيان.

واستمرَّ ابن شداد دوره العلمي البارز حتى آخر أيام عُمْره على الرغم من شيخوخته، حتى تُوفِّي عام 1234م حلب.

مكانته العلمية

أثنى عليه كثير من العلماء، وأكثروا من درجة توثيقه ومن هؤلاء : عمر بن الحاجب الذي قال عنه: ««كان ثقة، حجة، عارفاً بأمور الدين. اشتهر اسمه وسار ذكره، وكان ذا صلاح وعبادة، وكان في زمانه كالقاضي أبو يوسف في زمانه»».

قال عنه زكي الدين المنذري: "«حدث بحلب ودمشق ومصر وغيرها من البلاد ودرس بغير مدرسته، وأقرأ، وولي قضاء العساكر في الأيام الناصرية مدة، وقضاء القضاء بمدينة حلب، وصنف تصانيف حسنة»".

قال عنه تاج الدين السبكي: "«كان إماماً فاضلاً ثقة، عارفاً بالدين والدنيا رئيساً مشاراً إليه، متعبدًا متزهداً، نافذ الكلمة، وكان يشبه القاضي أبي يوسف صاحب أبي حنيفة في زمانه»" وقال: "«اجتمعت الألسن على مدحه، والقلوب على حبه، لمكارمه وأفضاله ونفعه الطلبة في العلم والدنيا»". أثنى عليه ابن خلكان وترجم له ترجمة كبيرة وقال: "«لقد أخذت عنه كثيراً»". وقال: "«وكان القاضي أبو المحاسن يسلك طريق البغادددة في ترتيبهم وأوضاعهم، والروؤساء الذين يترددون إليه كانوا ينزلون عن دوابهم على قدر أقدارهم، لكل واحد منهم مكان معين لا يتعداه»".

وذكره ابن كثير بقوله "«كان رجلاً فاضلاً، أديباً، مقرئاً، ذا وجاهة عند الملوك»".

قال عنه ابن قاضي شهبة "«قصده الطلبة للدين والدنيا، وعظم شأن الفقهاء في زمانه لعظم قدره، وارتفاع منزلته»".

مرضه ووفاته

وقد استنفذ ابن شداد بقية عمره في العلم والتدريس في حلب إلى أن مرض ووهن الشيخوخة فلزم مكاناً دافئاً يقيم فيه متدثراً لا يقوم إلا لأداء الصلاة، ويؤرخ ابن خلكان لذلك بقوله "كنا نسمع الحديث ونردده إليه في داره وقد كانت له قبة تختص به وهي شتوية لا يجلس إلا فيها صيفاً أو شتاء، لأن الهرم كان قد أثر عليه حتى صار كفرخ الطائر من الضعف لا يقدر على حركات الصلاة إلا بمشقة، وكانت النزلات تعتريه في دماغه، فلا يفارق تلك القبة، وكان رحمه الله لا يخرج لصلاة الجمعة إلا في شدة القيظ، وإذا قام إلي الصلاة بعد الجهد يكاد يسقط".

ويقول ابن خلكان :"ولقد كنت انظر إلى ساقيه وإذ وقف للصلاة كأنهما عودان رقيقان لا لحم عليهما". فكانت وفاته في حلب يوم الأربعاء 14 صفر 632هـ، ودفن في قبره الذي بناه لنفسه بجوار مدرسته في حلب.

ويقول المنذري: "وصلينا عليه صلاة الغائب بحران في الشهر المذكور" ولم يرزق ابنًا ولا كان له أقارب.

المصادر

1– موقع ويكيبيديا
2– موقع مؤسسة هنداوي www.hindawi.org
3– موقع الطريق http://www.altareekh.com